

بول ريكور: من الأنطولوجيا إلى الهرمنيوطيقا. جازولي أمينة/ جامعة سعيدة

يمكننا أن ننجز قراءة لمشروع ريكور (ب) Paul Ricoeur 2005-1913 من خلال قيامنا بتوزيعه على لحظتين أو مرحلتين: اللحظة الأولى يمكن نعتها بـ: ريكور والتأسيس الفينومينولوجي، حيث نجد إسهامات وجهية في تفعيل الحركة الفينومينولوجية منذ خمسينيات القرن السابق؛ إذ حاول ريكور من خلال هذه المرحلة تملك منهجية صارمة تمكّنه من فهم الظاهرات الماثلة أمامنا، ومن ثمّ يكون ريكور قد استلهم بالأخص مشروع كلّ من هوسرل (1) (1859-1938) E. Husserl ومارتن هيدغر (1889-1976) Martin Heidegger باعتبارهما مؤسسا الفينومينولوجيا.

بالإضافة إلى هذين الاسمين، نجد قطب آخر له الإسهام الصارم داخل الحركة الفينومينولوجية. الأمر يتعلق بـ: موريس مرلو بونتي (1908-1961) M. Merleau Ponty. كما استفاد ريكور أيضا في هذه الفترة من الحركة الهرمنيوطيقية، حيث التفاته إلى ممارسة قراءة معمّقة للنصوص المقدسة خاصة؛ تلك التي تنفتح على الأسطورة والرمز، مركزا بحوثه حول مسألة الإرادة Volonté بما هي محور المسائل الدينية والنفسية، والأخلاقية.

هذا ما يبرز جليا وبصورة واضحة في أولى مؤلفاته المعنونة بـ: فلسفة الإرادة، «الإرادي واللاإرادي» الصادر سنة 1950 في جزئه الأول، أما الجزء الثاني فهو المعنون بـ: فلسفة الإرادة «الثنائي والشعور بالذنب» الصادر سنة 1960. وعليه وجد ريكور في السند الفينومينولوجي والتأويلي طريقين أو كيفيتين لتخريج إشكالية الإرادة. «الفينومينولوجيا هي أفضل طريقة لوصف الظاهرات الإنسانية كما تظهر في أصلاتها الخاصة، دون أي بناء صوري خارجي عنها. والتأويلية أو الهرمنيوطيقا بما هي أنجع وسيلة لفهم معاني تلك الظواهر كما تعبر عن نفسها دون أي إسقاط منهجي لإرادة معرفة خارجية»¹.

أما المرحلة الثانية فيإمكاننا وصفها بـ: تطبيقات تأويلية على الظاهرات الإنسانية. هنا نجد انفتاحا شبه كلي على استثمارات والدخول معها في حوار مستمر بهدف التمكن من فهم علاماتها، ورموزها. ومثلما أشرنا فإن هذه المرحلة تبتدئ على وجه الخصوص بعمله: صراع التأويلات (1967) Le conflit des interprétations، وهو عمل في مجمله يشتغل على الهرمنيوطيقا كممارسة وتطبيق بغرض الكشف عن معنى مقبول لمفهوم الوجود؛ معنى يغير فيه معنى الظاهراتية عن نفسه بواسطة هرمنيوطيقية، وهذا ما يجعلنا نوّكد مثلما يشير إلى ذلك المفكر التونسي فتحي المسكيني «أنّ دلالة الصراع هي بالأساس دلالة منهجية، تتعلق بخوض مناظرة هرمنيوطيقية مع ثلاث مذاهب فكرية على التوالي: البنيوية، والتحليل النفسي، والفينومينولوجيا»².

«فإذا كان ثمة مسألة جديدة يقول ريكور (ب) للوجود فيجب أن يكون من المستطاع إنشاؤها. فإنّ هذا لا يمكن أن يكون إلّا انطلاقا من وعلى قاعدة التوضيح الدلالي لمفهوم التأويل المشترك بين كلّ الأنظمة التأويلية، وستنظم هذه الدلالات حول موضوع مركزي للمعاني بالمعنى التعددي، أو المتعدد المعنى أو سنقول أيضا أنها ستتنظم حول الرموز»³. هنا تحديدا تبرز أهمية الإجرائية لفكرة الرمز بالنسبة للممارسة التأويلية لدى بول ريكور. فالرمز هو بنية دلالة، يشير فيها المعنى المباشر والأول، والحرفي. فضلا عن تعيّنّه إلى معنى آخر غير مباشر وثانوي، أو مجازي، ولا

نحن إذن مطالبون بالكشف عما يخفيه الظاهر من معنى، لكن علينا في الوقت ذاته ألا نعتقد أننا بصدد ابتكار معنى واحد ووحيد، وإنما تأويل ما خفي يكشف بدوره عن تعدد ولانهائية المعنى. ولما كان الأمر كذلك فهو رمزي، وعلى الفلسفة أن تملك ما يملكها من الدخول في مؤسسة المعنى الرمزي. إلا أنه يبدو ضروريا القول أن لا وجود للمعنى الروحي للرمز بدون وجود إنسان، وعليه ليس يوجد حديث عن رمزية قبل الإنسان الذي يتكلم.

إن دور الفلسفة يقول فتحي المسكيني في قراءته لعمل بول ريكور «صراع التأويلات» هو استجماع جملة التجارب اللغوية للبشر بوصفها مسألة واجدة؛ فكل لغة هي مجموع من تجارب المعنى ينبغي على الفيلسوف أن يكشف عن الخيط الناظم لها، وليس ذلك الخيط غير الذات المتكلمة نفسها»⁵. وعليه يكمن دور الفلسفة في استئناف التفكير، أي أن تعيد الإنسان إلى جذوره، التي تعود فهمها من خلال إشارات خارجية عنها.

إن فهم الوجود في ضوء رمزي روحي يتطلب إقامة وتأسيس منهجية تملك قدرة استيعاب حقيقية، وهذا ما جعل ريكور يدعو إلى ضرورة إعمال الهرمنيوطيقا جاعلا منها المنهج المطبق والصارم على اللغة عموما، والتي منحت لريكور الإمكانية في أن يغدو الرمز أداة تفكير جذرية. يقول ريكور: «إن الرمز هو قوة المعنى المضاعف (...) إن الرمز إذ يتشكل هكذا من منظور دلالي، فإنه يعطي معنى عن طريق معنى. ذلك لأن فيه معنى أولي وحرفي واجتماعي ومادي في الغالب يحيل إلى معنى مجازي وروحي ووجودي في الغالب (...) إن الرمز يقول أكثر مما يقول، ولأنه لم يتوقف قط عن إفساح المجال للقول»⁶.

لقد عرفت التأويلية لدى ريكور العديد من التحوّلات والانعطافات؛ إذ لم تعد مرتبطة بتفسير النصوص، وذلك بالاكْتفاء بدراستها لسانيا، بل صارت وبالإضافة إلى ذلك تأويلا رمزيا، يهدف إلى الولوج والنفاذ إلى فهم الذات الثاوي في ما يقال، وهي عندما تعلن عن نفسها أداة ومنهج لا تريد نهائيا الادعاء بأنها علمية. ترفض التأويلية أن تغدو علما بالنسبة إلى ريكور، بل تفضل البقاء مجرد فكر متأمل.

لقد تمكّن ريكور من خلال رؤيته هذه من دحض كلّ ادعاءات البنيوية، مبينا على حدود إمكاناتها، ويعود ريكور إلى استثمار -في هذا الصدد- الأسطورة مؤكدا أنها ضرب من نضال البنية ضدّ الحدث؛ فاللاهوت اليهودي لا معنى له من دون قصّته التأسيسية، التحرّر من مصر وعبور البحر الأحمر، الوحي في سيناء، الضياع في الصحراء، إنجاز الوعد بالأرض، ومن ثمّ أعطت إسرائيل لنفسها هوية، وأسقطت نفسها في الماضي بوصفها الشعب الوحيد الذي حدث له وكأنه كلفة غير قابلة للانقسام. أن تحرّر من مصر وتلقي الوحي في سيناء، وغامر في الصحراء، ووُهب الأرض الموعودة، هذه السلسلة من الأحداث تحولت إلى هوية تاريخية، وذلك عن طريق إعادة تأويل تقليدها الخاص»⁷.

تكمّن إذن وظيفة الرمز في الربط الظريف بين تعدد المعنى في وجودنا والتباس الوجود نفسه. ويرى ريكور أن أصالة سيغموند فرويد S. FREUD تبرز جليا من خلال قدرته على لفت انتباهنا إلى ما تحمله تجارب الإنسان من تعددية، ومن ثم يكون قد فتح أمامنا بابا واسعا لتعددية التأويلات بوصفها جزءا لا يتجزأ من جدل الرغبة والثقافة والنزاع بين عالم القوة وعالم المعنى في تكوين وعي الإنسان. ولقد حرص ريكور على قراءة فرويد من غير أن يجعله

بديلا عن فلسفة الذات، بل هو يجعل من قراءته هذه إعلانا عن أزمة في فلسفة الذات نفسها.

إذا قمنا بتتبع ما كتبه ريكور حول سؤال الذات نكتشف أن هاجسه الحقيقي ارتكز بالدرجة الأولى على الجعل من الحادثة -التي كثيرا ما تعرضت للنقد، ومحاولات التجاوز- الجعل منها مبدءا أساسيا للذات، بمعنى ترميم وإنقاذ الحادثة من الانهيار، يرتبط بالأساس بإعادة تفكير الذات عينها، ومن ثم الانفتاح مجددا على مسألة الذات للتعامل معها لا من موقع المركزية، والإقصائية التي سببت الكثير من المتاعب للهوية وللحادثة في آن معا. «فالمحدثين وعلى رأسهم ديكرت حسب ما يذهب إليه ريكور قد وعدونا ببلورة ذاتية بلا أحكام مسبقة حول من تكون، كما افترض ريكور في طرح السؤال «من» مستعيضا عنه بالسؤال «ماذا» وكان قصده في ذلك تعطيل السؤال من؟ في أفق العقل البشري وتحويله إلى ورشة كونية بلا توقيع»⁸.

دخل ريكور مثل ما أشرنا في سجال مع فرويد باعتباره أكثر الفلاسفة الذين قاموا بزعزعة وبصورة جذرية نرجسية، وأنانية مركزية الذات الحديثة، والكشف عن ضبابيتها المدسوسة بداخلها. وقام ريكور بدوره بتطوير قراءته للتحليل النفسي، وذلك في عمله صراع التأويلات مؤكدا على ما يلي: «يجب أن نقول عن الذات في التفكير ما يقوله الإنجيل عن نفسه: يجب إضاعتها من أجل إنقاذها. ويحدثنا التحليل النفسي كله عن أشياء ضائعة بهدف العثور عليها رمزيا، ولذا يجب على الفلسفة التفكير في أن تدمج هذا الاكتشاف صلب مهمتها الخاصة»⁹.

قام هيدغر بنقل المسألة التأويلية من المستوى النفسي، السيكلوجي نحو المستوى الأنطولوجي، الوجودي. هذا ما تؤكد ملاحظات بول ريكور من خلال تتبعه لمسارات الهرمنيوطيقا، وتجربة الفهم لدى هيدغر. هذا الأخير أكد في العديد من المرات أن الفهم لا يمت بصلة إلى الدائرة السيكلوجية، ذلك لأنها منفصلة تماما عن كل معرفة للغير، عن كل إدراك لأي وعي غريب «إن الفهم يؤول بعبارات أنطولوجية باعتباره أحد مكونات الكائن، طارحا على نفسه مسألة الكينونة انطلاقا من أوضاع، ومن مشاريع محدّدة وقائمة على ركيزة من الفناء والانتها»¹⁰. فمن خلال هذه التنقلات المنجزة من طرف هيدغر يكون قد تمكّن فعليا، وبصورة واضحة من إلحاق الفهم بمسألة اللغة، بعد أن كان مرتبطا بالميزة السيكلوجية. «إن الفهم الذي يحصل لكائن ما عن وضعه وعن مشاريعه لا يمكن أن يُفسّر، وبالتالي أن يؤول إلا في وسط التكلم باللغة».

يرى ريكور في نقده لأنطولوجية الفهم لدى هيدغر أن هذا الأخير بالغ في اعتماده الكلي على البعد الأنطولوجي للغة (اللغة مسكن الكائن)¹¹. إن مهمة التأويلية حسب ريكور هو تأويل الرمز، أي العبارات ذات المعنى المزدوج وبالتالي هي دعوة إلى الانفتاح على العالم، وعي الآخر؛ لأن الرمز يطرح فكرة المرجع، ولأنه أثبت أن الخطابات في حدّ ذاتها انفعالات¹². ويحيل ريكور ثراء كل خطاب إلى تحمّله الرمزية من حيوية، فهي تغذي الخطاب بالرموز وما تحمله من جوانب تعبيرية. فاللغة لديه تفكير وأنها على أهبة مستمرة للكلام. بمعنى أنها باستمرار مستعدة لقول شيء ما لكونها تنتظم دائما داخل بنية، وترتبط بحدث ما.

إنّ خاصية كل تأويل أنه منفتح، لا يقبل أي انغلاق؛ انفتاح يحمل في الآن معا سمة لسانية، وأخرى غير ذلك. أي أنه يلتفت دائما إلى ما يمت بصلة إلى اللغة، وإلى ما يمت بصلة إلى التجربة المعاشة l'expérience vécu. إنّ قضية اللغة على الوجود يقول ريكور في عمله: صراع التأويلات «وقضية الوجود على اللغة تتحققان عبر ممرات مختلفة»¹³.

مجلة ليرغى العدد السابع والثامن سبتمبر 2017
وعندما يتحدث ريكور عن الانفتاح فإنه يؤكد من وراء ذلك على الخصوصية الأساسية للرمزية، والتي تبرز تحديداً في قدرتها على تفجير اللغة بحيث تجعلها تتوجه طواعية نحو الآخر، وإن كانت تفعل ذلك، فإنه فعل لصالح اللغة ذاتها. أي الغرض من وراء هذا التدمير هو تمكين اللغة من الانفلات والتحرر من ذاتها، أي أن تمتنع عن الانثناء، والانطواء، والانزواء، فاتحة يدها لاستقبال الآخر؛ الآخر لغة هو الآخر. «هذا ما يجعلها تكشف عن غموض الكينونة، أي أن الذات تعبر عن نفسها بأوجه مختلفة، وإن علة وجود الرمزية هي فتح تعدد المعنى على غموض الذات»¹⁴.

يشق ريكور لنفسه ومن خلال اجتهاداته التي انحصرت على مسألة التأويل طريقاً أخرى غير تلك التي تبنّاها التقليد التأويلي، فهو وعلى خلاف فلاسفة التأويلية لم يقف عند حدود حصر التأويل على النص وحسب، بل توجه به إلى فضاءات أخرى، وهي فضاءات الحوار والخطاب عبر فعل المحادثة. فالتأويل يقول ريكور هو فنّ تأويل النصوص في سياق مخالف لسياق مؤلفيها وجمهورها الأولي بهدف اكتشاف أبعاد جديدة للواقع.

فالتأويلية الرومانسية، والأنطولوجية، وحتى الفلسفة وقعت في الحلقة اللغوية المغلقة، عندما انغلّقوا على النص، وبحثوا في المنطق الداخلي والمحايث له من دون أن يهتموا بأن كلّ تثبيت للنص يمر عبر الإحالة إلى العالم. لكن التأويلية المنهجية المثبتة من طرف ريكور تقوم بالأساس على فعل القراءة بوصفه فعلاً منتجاً، أو كما قال أن نقرأ بمعنى أن ننتج نصاً جديداً. ولقد حرّر التأويلية من خلال نقده لها لكونها تغافلت عن أهمية اللغة وما تنجزه من علاقات مع السلطة والفعل، لأنها كانت تعتقد كما لو أن اللغة أصل لا أصل له.

الهوامش:

- 1 فتحى المسكيني، الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص154.
- 2 فتحى المسكيني، المرجع نفسه، ص155.
- 3 بول ريكور، صراع التأويلات، تر: منذر عياشي، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2005، ص42.
- 4 فتحى المسكيني، المرجع السابق، ص156.
- 5 فتحى المسكيني، المرجع نفسه، ص157.
- 6 فتحى المسكيني، المرجع نفسه، ص159.
- 7 فتحى المسكيني، المرجع نفسه، ص160.
- 8 فتحى المسكيني، الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، دار جداول، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص133.
- 9 بول ريكور، صراع التأويلات - دراسة هرمنيوطيقية، تر: منذر عياشي، بيروت، دار الكتاب الجديد، 2005، ص52. وفتحى المسكيني، المرجع السابق، ص140.
- 10 بول ريكور، فلسفة اللغة، تر: علي مقلد، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الثامن، خريف 1989، ص28.
- 11 بول ريكور، المصدر نفسه، ص29.
- 12 مارتن هيدغر، رسالة في النزعة الإنسانية، تر: عبد الهادي مفتاح، مجلة فكر ونقد.

Paul Ricoeur : Le conflit des interprétations, paris, seuil, 1967.

13 Paul Ricoeur, Ibid, p141.

14 بول ريكور، الهرمنيوطيقا والتأويل، تر: فريال جبوري عزول، دار قرطبة للطباعة والنشر، ط1، 1993، ص141.